كم أبْطَلُوا سُنَنَ النَّبِيِّ وعَطَّلوا ... من حِلْيَةِ التَّوحيدِ ذِرْوَةَ مِنْبَرِ
أيْنَ الحَفَائِظُ ما لَهَا لم تَنْبَعِثْ ... أيْنَ العَزَائِمُ ما لَها لا تَنْبري
أ يَهُزُّ منكُمْ فارِسٌ في كَفِّهِ ... سَيْفًا ودِينُ مُحَمَّدٍ لم يُنْصَرِ

وفي هذا دليلٌ على أن المدائح النَّبويَّة لم تكن مجرَّد ابتهالات ومُناجَيات ، وإنّما كانت توظِّف أيضًا في تصوير واقع المسلمين ، والاهتمام بقضاياهم ، والدَّعوةِ إلى إصلاح أحوالهم .

وعلينا أن نشير أيضًا إلى أثر بعض الأفكار الصّوفيَّة في شعر المدائح النبَّويَّة ؛ لا سيَّما وأنَّ مشايخ التَّصوُّف قد شاركوا مشارَكة واسعة في هذا المجال . ولننظرْ كيف يعلِّق محيي الدّين بن عربي على حديث « كنتُ نبيا وآدمُ بين الماء والطّين » في خُطْبة « الفتوحات المَكِّيَّة » :[1]

ويَكُونُ هذا السَّيِّد العَلَمُ الذي ... جَرَّدْتَهُ من دَوْرَةِ الخُلَفاءِ
وجَعَلْتَهُ الأصْلَ الكريمَ وآدَمَ ... ما بَيْنَ طِينَةِ خَلْقِهِ وَالماءِ
ونَقَلْتَهُ حتَّى اسْتَدَارَ زَمَانُهُ ... وعَطَفْتَ آخِرَهُ على الأبْدَاءِ
فأقَمْتَهُ عَبْدًا ذَلِيلاً خاشِعًا ... دَهْرًا يناجِيكُمْ بغارِ حِراءِ
حتَّى أتاهُ مُبَشِّرًا من عِنْدِكُمْ ... جِبْرِيلُ المخصوصُ بالأنْبَاءِ
قالَ السَّلامُ عَلَيْكَ أنْتَ مُحَمَّدٌ ... سِرُّ العبادِ وخاتَمُ النُّبَآءِ

ففي هذه الأبيات تعبيرٌ عما سمّاه ابن عَرَبي في « فُصوص الحِكَم »[2] « الكَلِمَة المحمَّدِيَّة » ويَقْصد بها أزَليَّة النّور المحمَّدي ، استنادًا إلى الحديث

---

(١) الفتوحات المكيّة ، تحقيق الدكتور عثمان يحيى ، ج ١ ، ص ٤٦-٤٧ ، و الأبداء : جمع بَدْء ، وهو أول كل شيء ، والأنبياء والنُّبآء : جمع نبيّ .

(٢) فُصوص الحكم لابن عربي ، تحقيق الدكتور أبو العلا عفيفي ، الفَصّ ٢٧ بعنوان « حكمة فردية في كلمة محمَّدِيَّة » ، ج ١ ، ص ٢١٤ . وانظر التعليق في ج ٢ ، ص ٣١٩-٣٢١ .